التوجه الحضاري في فكر مالك بن نبي
"قراءة تحليلية نقدية"

✍ أ. لكحل فيصل
قسم الفلسفة جامعة معسكر

1- ملخص البحث:

إنَّ من يريد أن يقدم عملا عن "مالك بن نبي" يجد نفسه أمام عقبات وإشكالات تطرح نفسها باستمرار وربما أهمها: لماذا الحديث عن مالك بن نبي وعن مشروعه الحضاري ونحن نعيش ما يفصلنا عن زمن مالك بن نبي أكثر من ربع قرن؟ وهل لهذا الفكر راهنية تاريخية معينة يمكنها أن تجد حلولا حضارية من جنس تلك التي عالج بها مالك بن نبي مشكلات زمانه الحضاري؟

إن معالجة مالك بن نبي لمشكلات الحضارة كانت دائمة مؤطرة بخلفية ثقافية دينية "الفكرة الدينية/ الإسلامية" التي اتخذ منها مبدأ لكل فعالية تغييرية في التاريخ، كما أن الأبعاد التي كان يرومها فكره الحضاري لم تكن لتتجاوز محاولة اقتراح الحلول الحضارية المناسبة لطبيعة المبدأ الثقافي الذي شكلت الفكرة الدينية أصلا له، وبالتالي هل يمكن للعالم العربي الإسلامي في هذا العصر أن يجد خيطا هاديا لأفق التغيير الحضاري انطلاقا من فكر مالك بن نبي علما أن الحلول الحضارية التي قدمها هذا الفكر بقيت تراوح المكان نفسه بدون انطلاقة حاسمة في التاريخ؟

2-الكلمات المفتاحية: "الحضارة"، "الفكرة الدينية"، "مبادئ التغيير"، "القابلية للاستعمار"، "الاغتراب" "الوعي التاريخي"، "الأفكار المطبوعة"، "الأفكار الموضوعة"، "الشاهدية".

3- مالك بن نبي "القضية والمسار":

ولد "مالك بن عمر بن لخضر بن مصطفى بن نبي" في الجزائر عام 1905[1]، وقد عاصر الحرب العالمية الأولى منذ الرابع عشر من أغسطس عام 1914، وما حملته من ويلات أثرت في تكوين حسه الفكري والإنساني، فالحرب العالمية كشفت للعديد من المفكرين أن هناك حدثا عالميا أصبح يتجاوز الإنسان ويفرض عليه تحدياته عدة، فبعد أن بينت الحداثة الغربية إبتداً من اللحظة الديكارتية وفلسفات الأنوار والنزعات الإنسانية، على أن الإنسان سيد الأرض ومالكها ومُغيراً لها وفق رغباته وطموحاته وسعادته، كشفت الحرب العالمية عن الستار الذي ظل يخيم تحت لواء قيم الحداثة الغربية الحالمة، وهو أنَّ الإنسان عوضا أن يكون مالكاً للطبيعة ومسخرا لإمكاناتها، أضحى يحتكم إلى أنانيته وصراعه وحبه في التملك والتسلط، مما فتح الباب على مصراعيه لبروز فلسفات القيم الإنسانية وفلسفات الدين والحضارة لمحاولة الاستنهاض بمهام التجديد والتغيير الحضاري"، ومن هنا كانت انطلاقة فكر "مالك بن نبي".

لقد شكلت الظروف الثقافية والاجتماعية، وكذا المحيط الذي عايشه "مالك بن نبي" إطارا تبلورت فيه نزعة التغيير في فكره، والتي كان مدار الأمر فيها "ضرورة الخروج من ربقة التخلف والانحطاط الذي يعيشه العالم الإسلامي"[2]، إذ أنَّ معايشة "مالك بن نبي" للراهن الحضاري الذي عاصره أوحت له أن الأمر لا يتوقف عند أزمات اجتماعية أو نفسية عارضة تواجه العالم المتخلف، وإنما أدرك بأنَّ الأمر يتعدى ذلك قناعة منه بأن الأزمة، أزمة ركود حضاري طال زمانه أمدا بعيدا، فالعالم العربي الإسلامي ومنذ عصر ما بعد الموحدين تردَّى إلى انحطاط حضاري مريع مثلت القابلية للاستعمار والتخلف الاجتماعي، السياسي والاقتصادي، والانحطاط القيمي الأخلاقي، والاغتراب في حضارة الغرب أحد أهم مظاهره التاريخية المتصدعة.

وفي هذا الصدد يطرح الباحث "عبد القادر بوعرفة" سؤالا مهما وجوهريا، وهو هل يمكن اعتبار مالك بن نبي –نتيجة إدراكه للمشكلات الحضارية وللمآلات

التي طالت إنسان الحضارة في هذا العصر–، مفكرا إصلاحيا أم اجتماعيا أم سياسيا أم فيلسوفا؟ لأن قضية التصنيف الفكري لأمثال المفكرين الكبار الذين ذاع صيتهم على مستوى عالمي ليس بالأمر السهل البتة، ولقد خلص الباحث "عبد القادر بوعرفة" من خلال دراسته حول فكر مالك بن نبي، بأنه لا يمكن عده من طراز أساطين الفلاسفة الكبار في تاريخ الفلسفة، بل هو متفلسف وليس فيلسوفا، لأنه لم يستطع أن يبدع نسقا فلسفيا خاصا ومستقلا من عنديته ولكن هذا لا يعني عدم أهميته وفعاليته وقدرته في التشخيص والتحليل والضبط والتجاوز، فهو من منتقي الأفكار الذين يسعون إلى تحقيق التوليف والتركيب، بين ما هو أشبه بالشتات المعرفي المنسجم، فتحقق في فكره صفات الفيلسوف الفقيه، العالم، المحلل والمؤرخ والسياسي المنظر[3]، وقد كان منطق مالك بن نبي هو بالضبط استقراء الواقع وحركته التاريخية مما ساعده على تحديد مشكلات الحضارة برؤية جديدة وإيجاد الحلول العملية القابلة للتطبيق في أي مشروع تغييري حضاري، ولهذا اتبع مالك بن نبي المنهج العلمي باستخدامه الاستقراء التاريخي، فقد كان ينطلق من الجزئيات "الأفراد" إلى الكليات "الحضارة"، ومن جهة أخرى استخدم الاستنباط لكي يصل إلى فهم الظواهر التي يحللها ويدرك العلاقة الكامنة بينها للوصول إلى نتائجها وقوانينها التي تساعد على التفسير والتنبؤ المستقبلي[4] كما استخدم مفاهيم التحليل النفسي والتاريخي، بصفتها أدوات معرفية تساعد في معرفة الانتظام الذي يحكم هذه الظواهر.

وما يلاحظ عند قراءة مذكرات مالك بن نبي هو أن ثقافة مالك بن نبي كانت ثقافة فرنسية وأداؤه اللغوي كذلك وهذا مرتبط بنمط تكوينه الذي تلقاه، ورغم ذلك فقد تعلم العربية بالقاهرة وكتب بها وألف بها الكثير من الأعمال، فكان أحد مستشاري المؤتمر الإسلامي[5]، فبعد أن كان التكوين الأساسي للمفكر مالك بن نبي في مجال الكهرباء، أدرك أن المعركة الحضارية الحقيقة هي معركة فكرية قبل أن تكون أي شيء أخر والصراع الفكري لن يخرج عن هذا الإطار، وربما كان هو السبب الحقيقي لتداعي

الحضارة العربية الإسلامية بعد مسيرة ناجعة دامت ردحا من الزمن[6]، إن الخلل يكمن بالضبط في افتقاد العالم العربي الإسلامي لمبادئه ومرجعياته التاريخية على مستوى الوجود النفسي والاجتماعي، تلك هي الحقيقة المرة التي أرقت فكر مالك بن نبي وجعلته يلج باب مشكلات الحضارة من بابها الواسع، إذ في ظل الارتجالية السياسية والتحزيبية البوليتيكة والتهاون العلمي والعملي أدرك المفكر أن محل الصراع يقع غير بعيد عن عالم الأفكار، ربَّ عالم للأفكار فقدت له المكانة التاريخية الملائمة في عالم أصبح كل ما فيه سيطرة الشيء وتعنت الأشخاص وترديهم إلى خلافات طائفية حزبية عرقية لا أساس لها في عالم المبادئ والقيم الثقافية الحضارية.

ولقد أحاط الظرف الاستعماري بأهم مراحل فكر "مالك بن نبي" ولكنها كانت ضرورية بشكل ما لتحريك الفعل الحضاري والفكري في مجتمع تسحقه الغطرسة وينالله التنكيل وتصهره مرحلة فمرحلة الذوات التبشيرية والتنصيرية[7]، التي أثرت في الشعور العربي الإسلامي عن طريق مغرياتها المادية الحضارية الناجزة، التي فرضت سيطرتها السياسية والاقتصادية باسم القوة وحقوق الإنسان وحماية الشعوب المستضعفة، حيث كان من شأن هذه الإيديولوجية المبيتة أن أفقدت العالم العربي الإسلامي ثقته التاريخية في مبادئه الثقافية والروحية من خلال تأثير المكسب الحضاري الجاهز الذي أصبح بضاعة ناجزة يطالب منا الغرب الاندماج فيها باسم الإنسانية والمشاركة في الحرية والممارسة الثقافية، بيد أن الحلول الغربية لم تكن سوى عزاء غير مريح سرعان ما ألقي بنتائجه الوخيمة مهددا الكيان العربي الإسلامي ومطوقا إياه بنوع من الحاكمية الحضارية النافذة التي لا تقبل العيش إلا في وسطها الثقافي الذي نبتت فيه، وبالتالي لم تملك الحضارة الغربية بالرغم من مبادئها الثقافية الإنسانية سوى قوة باطشة وآلة مدمرة تقوض خارج حدودها كل من يرفض الاستماع إليها والى نرجسية خطابها، فكان أن مررت أهدافها الإيديولوجية في حوامل هي من جنس التي تود القضاء عليها، لأنها أدركت بأن المبادئ التي تتجذر في بنية الوجود النفسي والروحي للإنسان العربي المسلم لا يمكن القضاء عليها إلا من

خلال تكريس بنية فاعلة أشد تفعيلا في واقع أخر يطرح نفسه كندية ناجعة في واقع حضاري مخالف، وهذا ما تجسد في تلك المساعي التبشيرية "المسيحية والنصرانية" التي عمل الغرب على تكريسها من أجل القضاء على فاعلية الفكرة الدينية الإسلامية في نفس الإنسان المسلم، وتلك هي أكبر مخاطر الاستدمار السياسي الغربي الذي نبه مالك بن نبي بخطورته وكرس نضاله الفكري من أجل تبصير العالم العربي الإسلامي بما ينتظره في أفق المعترك الحضاري الذي يخوض أشواطه التاريخية المعاصرة، لأنّ من شأن التداعيات الناتجة عن هيمنة الإيديولوجية الغربية حتما هو فقدان المبادئ والمرجعيات الذاتية في صنع القرار الحضاري الذي أضحى يناقش خارج الحدود السياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية للعالم العربي الإسلامي، الذي لم يكتب له في عالم الحضارة المعاصرة سوى الاستماع لما يقوله الغير وما يحدده له من أهداف ومبادئ مزيفة كانت استيرادا سيئا من حضارة غربية لا تملك من مبادئها سوى التعسف والتنكيل والفرض الجبري لقرارات التغيير خارج حدودها، وفي هذا نبه مالك بن نبي –من خلال ما يمكن استشفافه من تحليلاته– بأنَّ قرارات التغيير لابد من أن تصنع في نفس محيطها الطبيعي الذي ارتبط به وجودها النفسي والاجتماعي وإلا كانت مجرد عالم من الوهم لا يدركه إلا من خرج من إطاره، فالمبادئ التغييرية لا يمكن استيرادها، تلك هي القضية المهمة التي يمكن أن يدين بها العالم العربي الإسلامي لمسار الفكر الحضاري البنابي إذا ما هو أصغى إلى ندائه الخافت بعيدا عن متاهات السياسة وأدلجة الثقافة والدين والمجتمع.

4– منهج مالك بن نبي في نقد حركات النهوض والإصلاح:

لقد جعل مالك بن نبي من الواقع الاجتماعي الإسلامي في مرحلة انحطاطه محورا لتأملاته وملاحظاته التي تهدف إلى محاولة استئناف خط النهضة والإصلاح والتغيير الحضاري، ولأجل ذلك قام أولا باستقراء المحاولات التاريخية التي قام بها رواد الإصلاح في العالم الإسلامي أمثال "محمد بن عبد الوهاب" و"جمال الدين الأفغاني" و"محمد عبده"

و"عبد الحميد بن باديس" و"حسن البنا"، ومن خلال تحليلاته لتلك الحركات التغييرية وجد أنها لم تحقق النجاح المأمول لها، لأنها وقفت على الجوانب الجزئية " إما السياسية أو المجتمع أو الأخلاق"، ولم تصل إلى مستوى النظرة الشمولية التي تستهدف نطاق مشكلة الحضارة ونطاق مبادئ التغيير اللاَّزمة لمعالجة مشكلة الحضارة من جذورها، بل قلما كان هناك من نظر إلى الأمور النظرة الشمولية التي جاء بها الشهيد "حسن البنا" في حركته التغيرية والتي لم تكتمل بسبب تحولها بعده إلى حركة سياسية، ولهذا كله لم يحقق العالم الإسلامي النهضة والتغيير اللذين كان يصبوا إليهما[8]، فلقد استنفدت الحركات الإصلاحية التي ظهرت بوادرها في المجتمع الإسلامي كل إمكانياتها في محاولة تبصير هذا المجتمع بالحالة الراهنة التي كان عليها آنذاك من تخلف وتقهقر وجمود، فعمدت إلى اتخاذ النهضة بمختلف القيم الإسلامية التي كانت تحملها وتحكمها كسند للوقوف أمام حدة الصراع العالمي الذي فرض نفسه في القرن العشرين، ولكن "هذه الحركة كانت ترمي من كلا جانبيها في نهاية الحساب إلى أن تمهر المجتمع الإسلامي بالوسائل الملائمة للدفاع عن ذاته أو لتبرير نفسه، بدل أن تقوم بتحويل الشروط الواقعية والأساسية لهذا المجتمع"[9]، إذ المنطق الذي استندت عليه الحركات الاصطلاحية لم ينطلق من خلفية البناء الحضاري الذي يراعى فيه مبدأ التغيير وفعاليته داخل المجتمع، هذا بالرغم من أن الإصلاح أخذ مبرراته من فكرة الإصلاح الديني نفسه، إلا أن هذا لا يكفي بمفرده، إذ لابد من أن نفاعل هذا التبرير ضمن شروط موضوعية تقتضى إدماج المجتمع داخل سياق جديد يسيطر عليه مبدأ التغيير، هذا لأننا نستطيع أن نبصر المجتمع بالوسائل والإجراءات التي يمكنه من خلالها الدفاع عن نفسه والوقوف أمام التحديات التي تجابهه، ولكن هذا لا يضمن لنا في كل الأحوال واقعا اجتماعيا مغايرا، فإستراتيجية الدفاع/ التبرير/ النهضة، تنحل في النهاية إلى أزمة غياب الفعالية المجتمعية التي تضمن وجود نوع من الحراك عن طريق تثوير المبادئ في عملية التغيير والانجاز من أجل الإقلاع الحضاري، وكأّن المجهودات النظرية التي يحملها عالم الفكر الإصلاحي عاجزة عن سحق

تلك الهوة التي كانت تقف حائلا بينها وبين السندات الكافية لها في عالم الأشخاص، هذا لأن الأفكار لابد أن تجد لها وعاء حاملا في عالم الأشخاص لكي تضمن لنفسها الريادة في عالم البناء والتغيير والتوجيه، وإذا افتقدت هذا الوعاء أضحت مجرد مبادئ للدفاع والتبرير والجدل، وهذا ما يصدق وفق الوجهة التحليلية لفكر مالك بن نبي على المجهودات التي تضمنها الفكر النهضوي الإصلاحي، حيث يقول "وأشخاص الجيل الذي عاصرته ممن قرؤوا كتاب الإفلاس الأخلاقي للسياسة الغربية في الشرق لمؤلفه التركي أحمد رضا، أو كتابات شكيب أرسلان، كانوا في الحقيقة يقرؤون أعمالا للدفاع والتبرير، وليس أعمالا للبناء والتوجيه"[10]، وما يمكن أن يفهم من كلام مالك بن نبي هذا هو أن كل المجهودات النهضوية الإصلاحية التي ظهر صداها في العالم الإسلامي آلت تاريخيا إلى نوع من العجز عن مساءلة طبيعة الأمراض النفسية والاجتماعية الدفينة في أعماقها، إذ وقفت كمجرد ملاحظ لأعراض المرض، فهي أشبه برجل انتابه الخوف من خطورة الأمراض التي يحملها جسمه فراح في لحظة وعيه بآلامها يبحث عن المسكنات اللازمة لإزالتها دون أن يعرف طبيعة المرض وأسبابه، حيث كل ما أخذ قرصا من أقراص الدواء انتابه نوع من الشعور الزائف بالشفاء، وهو على تلك الحالة إلى أن يتفشى المرض ويستفحل حتى يتداعى الجسم إلى الضعف والهوان فيتفكك ويموت، ذلك هو مآل العالم الإسلامي إذا ما أخذنا بوجهة نظر الحركات الإصلاحية النهضوية التي راحت تقترح حلولا جزئية كانت تقتصر في معظمها على نظرة أحادية الجانب والبعد تتعلق إما بالإصلاح السياسي أو الديني أو التربوي أو الأخلاقي، ...ولهذا لم تع بأن المشكلة هي أولا وقبل كل شيء مشكلة حضارة بأكملها تخص المجال النفسي والاجتماعي بجميع القيم الثقافية والمادية التي تحيط به إذ ليس الحل هو تغيير الحالة المرضية التي تتأصل في الجذور التاريخية للمجتمع الإسلامي باقتراح أنصاف الحلول ثم نقول أن الحضارة هي هكذا نتيجة تحصيلية لمجموع هذه الحلول، "فالعالم الإسلامي يتعاطى هنا حبة ضد الجهل ويأخذ هناك قرصا ضد الاستعمار وفي مكان قصي يتناول عقارا كي يشفى

من الفقر، فهو يبني هنا مدرسة ويطالب هناك باستقلاله وينشئ في بقعة قاصية مصنعا، ولكنا حين نبحث حالته عن كثب لن نلمح شبح البرء، أي أننا لن نجد حضارة"[11]، إن الحل يكمن بالضبط-وفق الوجهة التحليلية لمالك بن نبي- في الوقوف عند نظرة تأملية تحليلية لطبيعة الحقبة التاريخية التي يعيشها العالم الإسلامي والتي يتأكد ضمنها أن المجتمع الإسلامي يشرف على بادرة الحضارة، إذ من شأن هذه المرحلة أن تكون مجرد إمكان أو استعداد فقط يستند على إستراتيجية تغييرية فعالة حتى يمكن الدخول الفعلي إلى الحضارة، وينتج عن هذا أن كل الحلول الجاهزة التي نعتقد أنها منتجات حضارية ناجزة ليست في الحقيقة سوى تكديس لمعالم حضارة أخرى، لأن "الحضارة هي التي تلد منتجاتها"[12] وليس العكس، إذ لا يمكن تحقيق تغيير حضاري من خلال المنتجات الناجزة لحضارة أخرى، لأن هذا الأمر يقود في النهاية إلى عملية محالة كما وكيفا[13]، فمن ناحية الكيف يستحيل أن يحدث تغيير حضاري يستند على روح وأفكار وأذواق حضارة أخرى، فهذه العملية تفتقد إلى خصوصية المبادئ التي يستند عليها التغيير الحضاري، لذلك تبقى بدون روح وبدون هدف، أما من ناحية الكم فان التغيير الحضاري لا يقتصر على الجانب الشيئي وفقط إذ أن تكديس المنتجات الشيئية لحضارة أخرى لا يمكنه أن يصنع تغيير حضاري، وان استطاع أن يحقق على طول الزمن وبدون قصد حالة حضارة، لأن عملية التغيير بهذا الشكل تفتقد إلى مبدأ الفعالية الذاتية التي يستند إليها الإمكان الحضاري[14].

بيد أننا إذا تأملنا الصيرورة التاريخية للإصلاح والتجديد الديني في الإسلام، نجد أن هدفه كان على الدوام استعادة العصر الأول، فلم يكن هناك لحركات الإصلاح والنهضة نتيجة ما في إحداث القطيعة التيولوجية التي تتجاوز الفهم النصي[15]، ليس هذا من أجل تجاوز النص أو تفكيكه وتقويضه، ولكن من أجل تفعيل هذا النص في ميدان العمل والانجاز، ولعل هذا لا يرجع إلى سوء فهم النص الديني وإنما يرجع إلى عدم امتلاك تلك الفعالية التي تجعل النص الديني معاصرا لنا في ميدان العمل والسلوك،

وفي تحليل رشيق للمفكر "برهان غليون" نجد أن الذين يستخدمون المشروع النهضوي لا يحددون قصدهم من هذا المفهوم وهذا في نظره من بين أكبر المشاكل التي يواجهها فكرنا الحضاري والسياسي والاجتماعي، الذي كف عن الفعالية وأعفى نفسه من مهمة صناعة التاريخ بحكم أن المفاهيم التي أنتجها خطابه كانت مجرد حوار وجدال لم يستطع معها أن يحدد أهدافه المطلوبة بالضبط،"هل نريد حضارة متميزة عن الغرب ؟هل نطمح إلى تنمية تجعلنا قريبين منه؟ هل نطمح إلى حل مشاكلنا اليومية؟"[16]، ولهذا فان المفكرين العرب حينما ينتهجون المشروع النهضوي نجد وكأنهم يريدون أن يقولوا بأن هناك حضارة عربية متميزة كانت في السابق وينبغي إعادة إحيائها، ولكنهم لا يبينون كيف وعلى أي أسس وإذا ما كانت هذه الحضارة مختلفة أم لا؟

لقد بين الخطاب النهضوي التاريخي في العالم العربي الإسلامي أن الحل يكمن في استعادة الماضي التاريخي وإسكانه في صلب مطالب الحاضر، ولكن يبدوا أن مسار الفكر النهضوي العربي راح يمشي ظاهرة على رأس الموكب في الآن نفسه الذي يشهد نهاية تاريخه، تتراجع كل تلك التفاؤلية التي خدرت العقل والمخيلة العربية لقرون عديدة، فلم يكن الفكر العربي الإسلامي ليفكر في النهضة كضرورة يتطلبها فك التخلفية والانحطاطية التي مافتئت تنكل بكل طاقاته، وإنما جاء الفكر النهضوي كوعي استثنائي، لم يكن العقل ولا المخيلة العربية لتنتج وعيا حضاريا إلا لأن العالم الغربي قد سبق وحدد المعيار الحضاري المناسب لها، وكأن الوعي العربي لا يقف على بادرة الحضارة بالمفهوم الحديث إلا لأن هناك ما يفرض من الخارج دائما، الغطاء الحضاري لكل ما نزعم أنه من إنتاج ثقافتنا الخاصة، مما يبدوا معه أن الثقافة العربية حديثها ومعاصرها لم تستطع صهر الثنائيات والمتناقضات التي تتخبط فيها تاريخيا، وكأن هناك نوعا من الانفصام بين واقع حضاري مرير عاجز من ناحية الإنتاج، نظرا لسيادة فكرة الاستهلاك الجاهز والمصنع الفوري الذي أعفى الإنسان العربي من امتلاك زمام القرار الحضاري، بل إنَّ الثقافة ذاتها أصبحت لا تلامس هذا الواقع الحضاري إلا من بعيد، لأنها لم تنتجه وإنما وجدته

جاهزا، وهذا ما يؤدي إلى نوع من الانكسار والتكدس الحضاري، ومن هنا فإن العالم العربي الإسلامي وقع في تناقض مزدوج، فلا هو أنتج الثقافة التي تبني الحضارة، ولا هو استطاع أن يلاءم بين ما يستورده من أشياء الحضارة الغربية وطبيعة الخصوصية الثقافية التي ينتمي إليها.

على نفس خطى مالك بن نبي تقريبا نجد مفكرا مثل "روجي غارودي" ينطلق مهموما من سؤال يطرحه الواقع عليه، يتجلى في البحث للإسلام عن دور في العالم المعاصر بعد أن فقد حضارته، إذ كيف يمكنه أن يعود فيجد له مكانا في عالم أصبح مهددا بالفوضى والضمور؟ إنَّ الحل يكمن حسبه في قراءة القرآن الكريم بفكر نقدي تاريخي تستخلص منه المبادئ التي تكون القواعد الأساسية لكل مجتمع إنساني، وتتجلى فعالية هذا الفكر النقدي التاريخي بالبحث عن أبعاد التصور القرآني الذي يجسد التوحيد كمبدأ أساسي للرؤية الإسلامية[17]، ولكن مبدأ التوحيد لم يتمثله الإنسان المسلم التمثل الصحيح، فالحركات الدينية قد تمثلت بعض المنطلقات الإسلامية، ولكن هذه المبادئ لم تستطع من خلالها بناء أنموذج تغييري للمجتمعات العربية الإسلامية ولذلك راحت تقنع نفسها بعملية الاستقطاب الكمي للأعضاء والامتداد الأفقي العددي، لأن التغيير لا يزال في نظرها مرتبطا بتكوين الجماعة ذات القوى العددية، أما التعامل مع قوانين الحركة الاجتماعية والتاريخية ومبادئ التغيير الفكرية والثقافية فذلك خارج دائرة تفكير الكثير منها[18].

ويمكننا هنا –حسب مالك بن نبي– أن نجد تصدعا ثانيا في حالة تيار الإصلاح النهضوي من خلال أنموذج جمعية العلماء المسلمين الجزائرية، إذ بالرغم من الدور الذي يقر به مالك بن نبي لجمعية العلماء المسلمين في تثبيت فكرة الإسلام الصحيح وتوعية المجتمع بقيم ومبادئ الإصلاح الاجتماعي وضرورته، إلا أنه رأى بأن ذهاب زعماء وعلماء الجمعية الإصلاحية إلى باريس ضمن الوفد الجزائري للمطالبة بحقوق الجزائر، يعد اختراقا صارخا للمنهج الذي رسمته الجمعية لنفسها، وهو توعية الشعب الجزائري

وتعليمه وتهيئة الطريق أمامه للتغيير، لأن مفتاح القضية في نظره هو في روح الأمة وليس في أي مكان أخر[19]، وكأن مالك بن نبي يشير هنا إلى أن ضرورة التغيير تأتي من الداخل وليس من الخارج، فمتى كانت الروح حية ومستعدة للتضحية والوقوف على المبدأ استطاعت أن ترسم في الواقع مشروع الإصلاح الاجتماعي والثقافي الذي يعبر في الأخير عن مسعى هذه الروح في تحقيق مطالبها التغيرية.

بيد أنَّ الوضع الحضاري الذي آلَ إليه العالم العربي الإسلامي في ظل المتغيرات العالمية الراهنة هو الفشل الذريع والأفول والبيات الحضاري والثقافي الذي جعل إنسان الحضارة ينتقل من مصاف الشاهيدة التاريخية التراثية إلى واقع حضاري آيل إلى ضنكية متصاعدة مَثَلَ الأُفُول نهايتها التاريخية "التخلف، حاكمية العولمة الغربية، افتقاد المرجعية، الاغتراب، التشيؤ، القابلية للاستعمار،....وفي ظل هذا لم يجد الإنسان العربي المسلم من بد سوى المطالبة بالمسكن الحضاري المناسب من دون أن يسلك المبدأ الثقافي الملائم لطبيعة هذا المسكن، ومن دون أن يفكر البتة بأن المستقبل الذي ينتظره لا يمكن أن يكون إلاّ من جهة أن الحضارة عندما تلقي بأطيافها على مجتمع تاريخي ما لا تجد نفسها إلاّ وهي متجاوزة بما يمكن أن ينفتح عليه المستقبل الإنساني من إمكانات –فعالية العالم الثقافي الذي هو الأصل في كل امتداد حضاري–، إن العالم العربي الإسلامي يعيش الآن فترة الضنك الحضاري المتصاعد، فترة تكبلت فيها فعالية كل إنتاج ثقافي، فالحضارة تجاوزت الثقافة بمعنى ما من المعاني، تلك هي النتيجة التي يمكن أن نصل إليها إذا ما نحن فكرنا في الحال الذي آل إليه العالم العربي الإسلامي في هذا العصر، إذ ما من مبدأ تقام عليه أواسر عالم الثقافة والأفكار في العالم العربي الإسلامي، إلا والوقائع تنبؤنا بنوع من الأفول الذي يسكن عراها ويفقدها أمل التغيير أمام حدة المطالب الحضارية التي أضحت تؤرق الإنسان العربي المسلم في هذا العصر، فلم يستطع أن يستسيغ هذه المفارقة الاستساغة المقبولة، فهو يعلم أن ما يملكه من مبادئ ثقافية يتكون منها عالم الثقافة عنده "مبادئ الفكرة الإسلامية" هي المنقذ من زمن العولمة والتصحر الحضاري

الفاطح، ولكنه يجد نفسه من جهة أخرى يستعجل الحل الحضاري والمنجز الشيئي في الراهن ويطالب بالحقوق قبل أن يقدم الواجبات، ولعل هذا الأمر ناتج من نواتج الترف والبذخ الحضاري الذي لاحظه عند الغرب "الأخر المتقدم والمتطور"، وفي هذا وجد الإنسان العربي المسلم نفسه بين نارين، نار الماضي الحضاري التاريخي الذي لم يستطع أن يستعيده بنفس الكيفية وبنفس الشدة والقوة التي كان فيها في الماضي التاريخي، ونار الحضارة الغربية المعاصرة التي أضحت مسكونة بهاجس الانفلات الدائم والجريان المستمر الذي لا يمكن اللحاق به إلا على مستوى الأماني والشعور لا غير.

من هنا يمكننا أن نقارب تحليلات مالك بن نبي في هذا الصدد، من خلال ما أضحى الإنسان العربي يعانيه اليوم من تأزم حضاري طال وجوده النفسي والاجتماعي، حينما اغترب عن مبدأه السماوي "الفكرة الدينية" وراح يعيش زمن التراث المنقضي في مخيال نفسي واجتماعي لا يدين لهذا المبدأ سوى بفضل الانتساب، إذ باسم الدفاع عن الإسلام رسم الإنسان المسلم عن الإسلام صورة مخيفة، حينما عجزت بنيته الثقافية عن اقتحام عوالم الأخر وعن إيجاد صيغة للحوار يمكنها أن تجعل الإسلام فكرة حية لا فكرة جامدة ساكنة، فإذا كان الحوار الذاتي يصاب بالشلل نتيجة انعدام آلياته الداخلية، فانه لا أمل لتحقيق حوار بينذاتي مع الأخر، إن لم يتحقق هذا الحوار أولا مع الذات وفي داخل بنيتها الثقافية، إن الصلح مع الذات لهو الشرط اللاّمشروط لكل حوار يمكن أن تعقده مع الغير، ويبدوا أن هذا الشرط غير متحقق في ثقافة الإنسان العربي المسلم، لأنه محكوم بالغة –"سيجموند فرويد"– إلى بنية لا شعورية خرصاء كل ما فيها هو أنها تبحث عن عالم الغد في أزمات اليوم، وتستغرق إرادتها ووعيها وكل إمكاناتها في لفظية الخطاب الذي يرزح تحت بنية لا شعورية عميقة فيه، فـ"المصطلح ليس حقيقة مطلقة وإنما هي نتيجة وعي يتمحور حول أصله اللغوي ثم يتجاوزه كما هو مصطلح الثقافة، بما ينبئ عن كيمياء الثقافة في إطار معطيات تاريخية واجتماعية وإنتاجية"[20] وهنا ينبغي التركيز والتشديد على أن المصطلحات التي يوظفها مالك بن نبي من مثل مصطلح

culture هي مصطلحات غربية بالأساس لا يوجد مماثل لها في تجربة العالم العربي الإسلامي، فكلمة ثقافة لا تماثل تماما المصدر الغربي، لأن المصطلح الغربي يعبر عن كيمياء معينة أنتجها هذا الفكر من ذاتيته الخاصة ومن خصوصيته النفسية والاجتماعية، لذلك يسعى مالك بن نبي إلى محاولة تأسيس مضمون مستقل من الوجهة النفسية يستعيد الثقة في رجل الفطرة من أجل بناء الإنسان والمجتمع الذي يعول عليه في مهمة استعادة الدور الريادي من أجل بناء الحضارة الإسلامية المأمولة[21]، ولكن الوضع الذي آل إليه الإنسان العربي المسلم والى غاية الراهن التاريخي بقي يراوح مكانه من دون انطلاقة حاسمة تؤهله للانتقال من مجال اللفظية والاصطلاحية إلى مستوى الفعالية الحضارية الواعية والهادفة "المغيرة"، فهو مثلا لا يجد في مجابهة الأزمة التاريخية التي تواجهه سوى أنه يبقى الوضع على مستوى نصية الاصطلاح "الإصلاح، التغيير، التجديد النهوض..."، ولا يرتقي إلى مستوى تفعيل اللفظ وتثويره في مجال العمل والانجاز الحضاري، بحكم أنه لا يملك إرادة التغيير إلاّ على مستوى الوعي بها أو في أحسن الأحوال على مستوى التأسيس اللفظي والاصطلاحي، وربما حتى هذا التأسيس اللفظي والاصطلاحي لإرادة التغيير لا يمكن أن نجد له مرجعية ثقافية تؤويه الإيواء الأصيل لاسيما وأن عالم الأفكار الإسلامي لم يعد ينبت النبات الأصيل في عالم أوحت به الأفكار المطبوعة، بل راح يشهد التصدع والانحلال فتردى إلى أفكار موضوعة، وقد بين "مالك بن نبي" بما فيه الكفاية في مؤلفه "مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي" كيف أن الأفكار المطبوعة تتحول إلى أفكار موضوعة حينما تفقد آليات استمرارها ومقومات وجودها الذاتية، وتفقد أصولها الثقافية، وتنتهي إلى بيات حضاري مريع.

وفي هذا الصدد يطرح أحد المستشرقين الكبار "بيرنارد لويس" سؤالا مهما في ما يتعلق بمشكلة الحضارة في الفكر العربي الإسلامي، وهذا في كتابه" ما الذي ذهب خطأ؟"، أي ما الذي أدى إلى تدهور الحضارة الإسلامية وهي المتمسكة بأهداب الدين والأخلاق؟ قد يكون هذا السؤال محملا ببوادر الشكوك والظنون التي تتربص بالدين

الإسلامي، بدعوى أن الحق لا ينتج عنه إلا الحق، إذ ينبغي أن يكون حال المجتمع والشعوب الإسلامية مرآة عاكسة لتعاليم دياناتها ومعتقداتها، ولكن ينبغي في هذا الصدد أن نفرق بين أمرين أساسيين أولهما أن الخلل لا يكمن في تعاليم الدين أو في مبادئه، وثانيهما أن سبب حالة الركود والانحطاط الذي تعاني منه الشعوب الإسلامية العربية في العصور المتأخرة لا يرجع إلى جهلهم لحقائق الدين والأخلاق، وإنما هو في افتقاد هذه الحقائق إلى المنطق العملي والفعالية السلوكية التي تعكس المبادئ على أرض الواقع انعكاسا يفضي إلى التغيير والتجديد الحضاري المستمر، ولعل سبب ذلك يعود إلى طغيان حلم الحضارة في الوعي والضمير العربي الإسلامي كنوع من المرض المحموم بشغف الرقى والتطور، وذلك حين تسرب إلى العالم العربي الإسلامي أوائل القرن التاسع عشر سؤال النهضة والتغيير الحضاري إلى أن امتد في القرن العشرين ليشغل كل التيارات الفكرية والسياسية في العالم العربي، ممثلا برموز التنوير، كالأفغاني ومحمد عبده ورشيد رضا، ولكن في مقابل هذا تم تكثيف الجهود لحساب قضايا الهوية والدفاع عنها ضد أمواج الأفكار والفلسفات السياسية والثقافية التي راجت في المجتمعات العربية، وهو ما فتح الباب على مصراعيه للسؤال عن مدى محورية الفكر الحضاري وقضايا النهضة في الفكر الإسلامي المعاصر[22] أمام حدة الأزمات المتتالية التي تجاوزت كل ما قدمته التيارات الفكرية والثقافية من حلول حضارية عاجلة.

هذا لأن الأزمة التي تواجه العالم الإسلامي باستمرار هي بالضبط عدم تبصره بطبيعة الأمراض التي تستفحل فيه يوما بعد يوم، فهو أشبه بالمريض الذي دخل الصيدلية طالبا الدواء دون أن يدرك سبب مرضه على وجه التحديد، وإذا كان الخطر يكمن في الجهل بأسباب المرض، فان ما هو أخطر من ذلك، أن يسترد العالم الإسلامي الدواء من صيدلية الحضارة الغربية طالبا الشفاء، فهو عوضا أن يقضى على المرض يقضى على نفسه فتكون حالته كمن يقف بين مفترق الطرق عاجزا عن تحديد الداء واقتراح الدواء[23].

أمام حدة هذا المرض الحضاري المزمن سيشعر الإنسان المسلم حتما بعدم جدواه بحكم أنه يعرف بأن التاريخ يصنع بدونه، فهو بوصفه عنصرا من عالم غير مخطط يري نفسه مجتازا من طرف التطور السريع لبقية البشرية[24]، وبالتالي لا يصبح يمتلك التغيير إلا على مستوى الفكرة/ المبدأ، أما الجانب التطبيقي فان الإنسان العربي المسلم يجد نفسه متجاوزا دائما بصيغ التغيير والتبدل التي أصبحت تفرض عليه من الخارج وتحتم عليه الاندماج في عالم ليس هو إياه، لأن نمطية التغيير الذي لا تؤخذ بوادره من إرادة واعية ذات مقاصد هادفة سرعان ما يتلاشى ويركن إلى السكون والبيات التاريخي، الذي حصل للفرد والمجتمع العربي الإسلامي في فترة تاريخية منذ عصر ما بعد الموحدين إلى غاية اليوم، أي منذ أن فقد حضارته، فلم تسعفه بذلك الحلول الغربية الجاهزة التي يستوردها من الغرب، ولا تلك التي يعتقد في نفسه أنه يستطيع بناءها بما تبقى له من عالم أشياءه وأشخاصه، بل فقط حينما يدرك الإنسان العربي المسلم أن هذا العصر هو عصر التغيرات الكبيرة وعصر الانطلاق التاريخي بغير عودة، ويبدوا أن المعترك التاريخي الذي يرتكن فيه هو "عدم رضاه بالواقع النفسي والاجتماعي الذي يعيشه" ولعل المفارقة التي تواجهه في هذا الصدد هو أنه يدرك بأنه ينتمي إلى حضارة عريقة ذات مبادئ روحانية وقيم خاصة، ولكنه من جهة أخرى يعلم أن التغيرات التي يؤول إليها حاضره التاريخي تكاد تنفصل عن هذه المبادئ وتلك القيم، ومما يزيد طبيعة المفارقة حدة هو أن هذه المفارقة لم تصبح تطرح نفسها على المستوى النفسي والاجتماعي، بل إنها طالت المجال السياسي والاقتصادي، وأصبح الإنسان المسلم والفكرة الإسلامية "المبدأ" على طرفي نقيض.

وفي هذا يمارس الإسلام –كما يرى "محمد أركون"– في آن معا نوعا من الجاذبية والنفور على الباحثين الغربيين، فهم من جهة يرغبون في سماع ما يقوله المسلمون عن أنفسهم وعن دينهم ومجتمعاتهم ولكنهم يرفضون اتخاذ المثال الإسلامي كقاعدة انطلاق من أجل دراسة الظاهرة الدينية أو التفكير بها[25]، ولعل موقف "محمد أركون" هذا يشي بأن سبب بعد الغرب عن الإسلام وعدم إيجاد صيغة حضارية للحوار معه هو

بسبب أن المسلمين أنفسهم بعيدون عن تعاليم الإسلام، فالغرب يعرف قيم الدين الإسلامي ومبادئه التي شكل الماضي التاريخي الحضاري أفقا لنهضة الإنسان والمجتمع الإسلامي الأول، ولكنه يدرك من جهة أخرى تدهور وانحطاط الإنسان المسلم الذي انفصل عن أصله الثقافي وغدا مغتربا في نوع من الضنكية الحضارية المتصاعدة، وبذلك أضحت كل دراسة غربية للدين ولتاريخ الأديان تسقط الدين الإسلامي من حسبانها ليس على مستوى الدراسة والبحث والفهم، بل على مستوى التأثر به أو اعتباره قدوة أو مثالا مقتدى، وهذا الأمر أشد خطورة وتنكيلا بقيم الإسلام وتعاليمه، إذ لو كان الإسلام حيا في قلوب وضمائر وأفعال وسلوكات المسلم لما استطاع الغرب أن يتجاوزها بحثا في تفكيكه وتقويض بناه، فلما لم تكن فكرة الإسلام حية عند المسلمين فكيف نطلب لها الاستبراء والتأثير في الآخرين ونحن نزداد يوما بعد يوم بعدا عنها وعن مقاصدها الحقيقية، إن هناك بالأحرى تغيرا سلبيا معاكسا تماما لمقاصد الفكرة الإسلامية الدينية، ذلك الذي أضحى العالم العربي الإسلامي يؤول إليه مآلا غير محمود ولا هو مفكر فيه كأمل للتغيير والنهضة الحضارية، والواقع الاجتماعي والنفسي الذي أضحى يتخبط فيه العالم العربي المسلم في هذا العصر خير شاهد عن التردي المريع الذي انحلت إليه الفكرة الإسلامية في الوعي الفردي والوجود الاجتماعي.

إنَّ مسعى "مالك بن نبي" هو بالضبط الخروج بالخطاب الإسلامي من مرحلة الدفاع عن الإسلام إلى مرحلة النظر العلمي الموضوعي الموجه بقيم الإسلام وعقيدته، لإيجاد الحلول العلمية لهذا الكم الهائل من مخلفات عهد ما بعد الموحدين[26]، وذلك بالبحث عن"...وسيلة للخروج من هذا التخلف وتبعاته بطرحه مشروعا تغييريا ثقافيا اجتماعيا "حضاريا بعامة" للعودة بالمجتمعات المسلمة إلى دائرة الحضارة[27].

غير أنَّ الأمرَ المشهود في حالة المجتمع العربي الإسلامي ومنذ عصر ما بعد الموحدين هو انعدام فعالية الثقافة وفقدان إرادة التغيير، وربما هجران المبادئ والقيم، ويظهر هذا الأمر جليا في "ضعف الارتباط بالفكرة أو المبدأ وتنامي الارتباط بالأشخاص والهيئات

أو ما يسميه بعضهم بالإمعية،...إن ارتباط المسلمين–وخاصة الشباب منهم– بالأشخاص والهيئات، أكبر وأقوى من ارتباطهم بالإسلام نفسه، بالرغم من حرص الجميع، من الناحية النظرية، على ضرورة جعل الإسلام هو الميزان في الحب والبغض والمولاة"[28]، لأن الارتباط بالأشخاص يحدث تغيرا باهتا فاقدا لكل فعالية سلوكية مبدعة وناجزة، بينما إذا ارتبط التغيير بالفكرة أو المبدأ فان الفعالية تكون حضارة لأن الذي يتغير وفق تغير الأشياء والأشخاص يكون مثل المقلد فقط، بل انه يتحول إلى آلة نمطية لا تعرف إلاَّ أن تطبق فقط، بينما يكون الارتباط بالفكرة أمرا حيا دائما في إرادة صاحبه، فالفكرة تسكن العقل والضمير وتتحول إلى إرادة، بينما الشيء أو الشخص فإنه لا يملك هذا المفعول، بحكم أن التغير الحقيقي لا يأتي بدفعة من الآخرين أو عالم الأشياء وإنما هو من الفكر ذاته، ولعل عدم التبصر بهذه اللازمة راجع إلى حدة ذلك الالتباس الذي أضحى العالم العربي يتخبط فيه، منذ أن وجد نفسه غائما في متاهات العقل الحائر بين مبادئه التي يدين لها تاريخه ومعتقداته، وبين تحديات التغيير التي تفرض عليه من كل حدب وصوب، فنحن كأمة عربية إسلامية ورثنا مجموعة من المبادئ والقيم العليا التي نحس في أعماقنا أنها قيم ثابتة ومتحررة من قيود الزمان والمكان ونحكم عليها أنها قيم تصلح للإنسان من حيث هو إنسان بغض النظر عن خصائصه الجزئية وتغيراته الحياتية التي يمر بها، فهل هناك تناقض بين قبولنا تلك المعايير الثابتة المطلقة من جهة، وقولنا من جهة أخرى أن الحق يتغير بتغير الموقف الذي يصادفنا والمشكلة التي نعالجها، فما قد يكون معيارا صالحا اليوم قد لا يصبح معيارا صالحا غدا؟[29]، وبغض النظر عن العلاقة الجدلية بين المبادئ والمتغيرات التي لا يمكن الفصل التام في ما إذا كانت المبادئ هي بدورها متغيرة أم لا؟ فإن القضية الأشد جوهرية في هذا الصدد كما يري مالك بن نبي ليست قضية مبادئ ومسلمات بل قضية ترجمة أو تعبير عن هذه المبادئ أو تصيير هذه المبادئ وهذه المسلمات حقائق اجتماعية[30]، ولهذا بالضبط فإننا لا نتفق مع تحليل الباحث "عزيز المدرس" الذي أقر بأن مجهودات مالك بن نبي اقتصرت على مجال الكشف

عن قوانين التغيير وآلياته في بعد تجريدي نظري، هذا لأن مالك بن نبي ركز على أهمية المبادئ من حيث فعاليتها في المجال العملي، فلا قيمة للمبادئ ما لم تتجسد واقعا سلوكيا عمليا من شأنه أن يغير نفسية الفرد والمجتمع إلى حالة الحركة في التاريخ، وبالتالي فان جهود مالك بن نبي بالعكس تماما من ما يعتقد الباحث "عزيز المدرس" ليست بحاجة إلى وضع أسس جديدة لتفسير التاريخ وفق تصوراتنا ومرتكزاتنا الحضارية لأن ما كان يتطلبه الواقع الحضاري الذي عايشه مالك بن نبي ليس هو وضع مبادئ وقوانين جديدة بقدر ما هو إيجاد التشخيص الأمثل لحالة الانحطاط الحضاري الذي انتهي إليه العالم الإسلامي، ومن ثم إيجاد الحلول والمقترحات اللازمة لتجديد الوعي النهضوي والحضاري، من خلال بث فعالية المبادئ التي قامت عليها الحضارة الإسلامية في عهدها الأول، في الواقع الحضاري والاجتماعي الذي يواجهه العالم العربي الإسلامي[31].

5- العالم العربي الإسلامي، تحديات الراهن وأفاق المستقبل:

من هنا وجب على العالم العربي الإسلامي أن يواجه مشكلاته الحضارة بالوعي بقيمة وأهمية الفلسفة التي تؤسس لمقومات النهوض الحضاري في العالم العربي الإسلامي من جديد، ولكن هذا لا يعني بأن ننظر إليها على أنها مجرد أفكار وتصورات مثالية ومتعالية لا علاقة لها بالواقع، بل يجب أخذها مأخذ الواقعية والفعالية العملية المرتبطة بالواقع النفسي والاجتماعي للإنسان العربي المسلم، أو بما يتلاءم مع طبيعة الوجود النفسي والاجتماعي أو من حيث يتم النظر إلى الفلسفة على أنها "... نقد ودحض، وليست هي فقط تصورات عقلانية كبرى في المجرد والأعم والأشمل، ليست فقط إستراتيجية في التفسير الكلي والتغيير في الحال والمال إنما هي الرؤية التي تفجر الرؤى والحركة الشمولية التي ترج رجا قويا حتى لا تتوقف حركة الحياة وديناميةالفكر وصيرورة الوجود البشري في ديناميته وتنوعه وجدلية أبعاده المتعالي والمحسوس المطلق والنسبي، المركز والأطراف، الاختلافي والتشابهي، العقلي والتخيلي، الواقعي والمثالي"[32]، إذ من خلال هذه الجدلية

يتكون الحس النقدي والفلسفي الذي يتخذ الواقع الاجتماعي والنفسي بجميع أبعاده موضعا لفهمه وتفسيره ونقده، وبذلك يمكن أن نذيب مثالية المبادئ ونجعلها منصهرة تماما في واقع معين، يضمن للإنسان القدرة على عكس عالم تصوراته ومبادئه في سلوكاته وأعماله.

ويتبين لنا من خلال هذا أن ما يحتاجه العالم العربي الإسلامي في هذا الصدد هو "فلسفة نقدية" بمعنى الكلمة وليس "فلسفة لفظية" ولا "فلسفة عقلانية متطرفة" ولا "فلسفة مثالية متعالية"، ولا "فلسفة عبثية" إذ النقد وبالنقد وحده يمكن أن يملك الفكر العربي الإسلامي المعاصر زمام الفعل الحضاري بالعودة خطوة إلى الوراء للقفز إلى الأمام من جديد، والنقد هنا لا بد أن لا يقتصر على التراث والعقل فقط، بل يجب أن يطال الفعل والممارسة، أي العمل والممارسة، المجتمع والسياسة والاقتصاد، نقد حتى دوغمائية التصورات الفلسفية ذاتها التي تنمط معايير القيم والمبادئ في أفق واحد بعينه، إذ " لا تحقق الفلسفة ذاتها ولا تقوم بدورها إن لم تكن رفضانية تحارب الإيديولوجية، تنتقد الاجتماعي تخلخل المستقر الفكري والحقل النظري فالفلسفة سؤال غير متوقف وزعزعة للوعي وللممارسة ومساءلة ومحاكمة للأسس والجذور النظرية في الإنسان والفعل والعلائقية بمنتوج العقل وللعقل عينه بشبكة القيم ولوحة المعايير"[33]، وحسب مالك بن نبي فإن ما يتطلبه العالم العربي الإسلامي هو انتهاج عملية تغيير عام يمس طريقة تفكير الإنسان مهما كان بغض النظر عن تحصيله العلمي، وهذا من خلال تكوينه تكوينا حضاريا واعيا يتعامل مع الحياة ومع مشكلاتها بطريقة منظمة وفق مبادئ ثابتة تمنعه من أن يكون عدوا للنهوض والتقدم وتحصنه من براثين السطحية والانفعال السطحي الساذج[34].

6- استنتاج:

من هنا يمكننا القول أن الدرس الذي تعلمنا إياه فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي هو الوعي بمتطلبات التغيير الحضاري التي تؤهل العالم العربي الإسلامي الدخول

في دورة جديدة للبناء الحضاري ويبدو من خلال ما سبق أنَّ موضوع التغيير هو باستمرار الإنسان وبيئته ومحيطه، والتصورات الاعتقادية للإنسان وأسلوب تفكيره وقيمه وسلوكاته، والأنظمة التي يقيمها لضبط وتوجيه شؤون حياته الثقافية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية[35] ولذلك لا يمكن الكلام عن التغيير إلا من خلال تلك الاستعدادات الكامنة في نفس الإنسان، والتي تجعله يسعى إلى أن يغير واقعا حضاريا بأكمله، يقول الله سبحانه وتعالى "إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنْفُسِهِمْ" (الرعد،11)، بيد أن سؤال ينشئ هنا يقول: ما هي حدود تغيير ما بالنفس وما هي مجالاته؟ أهو التغيير في الفكر أم في الإيمان أم في القيم الأخلاقية؟ أم يشمل ذلك التغييرات المادية المطلوبة مثل امتلاك الأسباب المادية؟ لأن هناك بعض التغيرات التي لا تحدث إلا وفقا للآية: "وَأَعِدُوا لَهُم مَا اِسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَةٍ وَمْنْ رِبَاطِ الخَيْلِ" "الأنفال الآية 60"، فإذا قيل أن المعنى يحمل التغيرات الحضارية المختلفة "سياسيا، تنظيميا، ماديا، تكنولوجيا" فإن هذا يحتاج بدوره أن يتم عبر مراعاة سسن التغيير من حسن تحديد الهدف وحسن اختيار نظرية العمل وأسلوب التغيير[36]، ولأن التغيير الاجتماعي والحضاري يتحققان عندما تتوفر لهما القدوة النموذجية على مستوى الفكرة المرجعية والسلوك الفردي والأداء الاجتماعي[37]، إذ "التغيير الحضاري تحكمه باستمرار نظرية "القدوة النموذجية" بكل ما تعنيه من تفوق واقتدار وإشعاع انفتاحي متجدد على مستوى المنهاج أو المرجعية الفكرية، وعلى مستوى السلوك أو الأداء الفردي، وعلى مستوى الأداء الاجتماعي والحضاري للمجتمع والأمة عامة"[38].

ولقد أجملت الرؤّية القرآنية كل هذه المحددات، إجمالا يحدد القاعدة الكونية لوجهة التغيير الحضاري، إذ هي تَطرحُ إشكالية التغيير الحضاري طرحا منهجيا جذريا شاملا تتسق مع سنن التسخير التي تحكم وتوجه الفعل الاستخلافي أو الحضاري، كما يبدو هذا من خلال النص القرآني التأسيسي الذي ورد في قوله تعالى "إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنْفُسِهِمْ" (الرعد،11) [39]، فتغيير ما بالنفس هو الشرط الذي منه

تبدأ عملية التغيير الحضاري، إذ أن دور الإنسان لا يتوقف على حفظ النوع، بل هو خليفة الله في أرضه وهذه الوظيفة الاستخلافية توجب عليه إجراء عملية تغيير نفسي واجتماعي يتمثله قناعة ومسلكا، فإذا أردنا تحديد البعد النهضوي الحضاري في نفسية الإنسان العربي المسلم لابد أن نهيئه إلى عملية تغيير نفسي واجتماعي، لأن أبعاد التغيير المطلوب لذات الإنسان وصولا إلى تغيير الجماعة لا يمكنها أن تنشأ هكذا مصادفة بلمسة سحرية أو بجهاز أعد خصيصا لهذه الغاية، ولا تكون بتكديس منتجات الحضارة وإعداد الإنسان لها مهنيا[40] وإنما يجب أن تكون أبعاد التغيير الحضاري للإنسان العربي المسلم متوافقة مع تربية دينية وأخلاقية واجتماعية تراعى فيها علاقة الإنسان بذاته باعتباره خليفة الله في الأرض وعلاقته بغيره باعتباره كائنا اجتماعيا له حقوق وعليه واجبات، إذ من هنا فقط يمكن بناء نموذج الإنسان الحضاري الذي يستطيع أن يجعل أبعاد التغيير الحضاري أمرا ناجزا بالفعل في المجال الثقافي، الاقتصادي، السياسي والتربوي تلك هي ربما القضية الجوهرية التي توضح الخطوط العامة للمشروع الحضاري عند مالك بن نبي، وتبين بما فيه الكفاية مدى وجاهة طرح مالك بن نبي في معالجة مشكلة الحضارة، فالعالم العربي الإسلامي لا يزال إلى غاية الراهن التاريخي يحتاج وبقوة إلى إعادة استئناف نهوضه الحضاري انطلاقا من نفس تلك الحلول التي قدمها مالك بن نبي، لأن الحل العاجل للمشكلات الحضارية التي يواجهها العالم العربي الإسلامي في العصر الراهن ليس هو الوقوف أمام الأزمات أو الاستسلام لقدرية التاريخ أو الانصهار في حضارة الغرب وإنما هو وضع لبنة من لبنات البناء، وتلك هي المهمة التي نعتقد بأن فكر مالك بن نبي قد استنهض بعض مهامها، ويبقى كل اعتراض عن فكر مالك بن نبي يحتاج بالضرورة إلى المساهمة في وضع لبنة من لبنات البناء.

هوامش الدراسة:

[1]- مالك بن نبي، "مذكرات شاهد للقرن"، القسم الأول، الطفل، بإشراف ندوة فكر مالك بن نبي"، دار الفكر دمشق البرامكة، ط6، 2009، ص15.

[2]- نورة خالد السعد، "التغيير الاجتماعي في فكر ملك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية"، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط1، 1998، ص 36.

[3]- لقد بين بعض شراح ودارسي في فكر "مالك بن نبي"، بأنه فيلسوف الحضارة ويمكن أن نجد هذا في كلام كل من مبارك الميلي، عبد العزيز الخالدي، عمر مسقاوي، عبد الصبور شاهين وغيرهم، بيد أن الباحث " عبد القادر بوعرفة" يري بأن "مالك بن نبي" يجمع بين حس الفيلسوف المتأمل ومنطق الرياضي المجرد، وقدرة المحلل النفساني على سبر أغوار النفس واستقراء أمراضها وعبقرية رجل الدين في فهم أبعاد النص، من خلال فتحه لباب جديد في الفكر الإسلامي تمثل في فقه الحضارة، في هذا أنظر عبد القادر بوعرفة، "الحضارة ومكر التاريخ"، منشورات مخبر الأبعاد القيمية للتحولات الفكرية والسياسية بالجزائر، دار رياض العلوم الجزائر، ط1، 2006، ص29 ص30.

[4]- نورة خالد السعد، "التغيير الاجتماعي في فكر ملك بن نبي، مرجع سابق، ص281.

[5]- بشير ضيف الله، "فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي"، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2005 ص22.

[6]- المرجع نفسه، ص27.

[7]- بشير ضيف الله، "فلسفة الحضارة في فكر مالك بن نبي"، مرجع سابق، ص34.

[8]- نورة خالد السعد، "التغيير الاجتماعي في فكر ملك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية"، مرجع سابق، ص269.

[9]- مالك بن نبي، "القضايا الكبرى"، إشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر الجزائر، دار الفكر دمشق سوريا ط1، 1991، ص47.

[10]- مالك بن نبي، "القضايا الكبرى"، مصدر سابق، ص48.

[11]- مالك بن نبي، "شروط النهضة"، ترجمة عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر،ط3 1969 ص60، ص61.

[12]- مالك بن نبي، "شروط النهضة"، مصدر سابق، ص61.

[13]- مالك بن نبي، "شروط النهضة"، مصدر سابق، ص62.

[14]- بهذا الشكل يقارب مالك بن نبي الحالة التي وصل إليها العالم الإسلامي آنذاك-أي غداة عصر النهضة- واصفا إياها بحالة الحضارة الشيئية، إذ منذ نصف قرن والعالم الإسلامي يعمل على جمع أكوام من منتجات الحضارة أكثر من أن يهدف إلى بناء حضارة، وقد تنتهي هذه العملية إلى أن يصل إلى نتيجة ما بمقتضى قانون الصدفة فكوم ضخم من المنتجات المتزايدة دائما يمكن أن يحقق بدون قصد حالة حضارة، ولكن دون أن يصل إلى بناء حضارة أصيلة وأصلية، فمثلا هناك فرقا شاسعا بين حالة الوهم الحضاري التي يعيشها المجتمع الإسلامي

وبين تجربة مخططة كتلك التي حققتها روسيا خلال أربعين عاما والصين منذ عشر سنوات فهذه التجارب تبرهن لنا أن الواقع الاجتماعي خاضع لمنهج فني معين، ومثال ذلك أيضا النقلة الحضارية في التجربة اليابانية التي انتقلت من مرحلة العصور الوسطى "بادرة الحضارة" إلى الحضارة الحديثة، لذلك سعى العالم الإسلامي إلى اجتياز نفس المسافة الزمانية، بيد أنه وقف أمام استحالة مزدوجة، فمن ناحية نجده يفتقد إلى عامل الفعالية الذاتية، ومن ناحية أخرى نجده يربط الإقلاع الحضاري بمقياس تجارب المجتمعات الأخرى، هذا مع العلم بطبيعة الاختلاف في الخصوصية الاجتماعية سواء من حيث القيم الثقافية التي يحملها العالم الروحي أو المعطيات الشيئية التي يتميز بها العالم المادي، أنظر في هذا الصدد/- مالك بن نبي "شروط النهضة"، مصدر سابق ص63، ص64.

(15)-نواف القديمي، "الإسلاميون سجال الهوية والنهضة، مقاربات في الفكر والممارسة"، المركز الثقافي العربي ط1، 2008، بيروت لبنان، ص153.

(16)- أحمد الشريف وآخرون، "جدل النهضة والتغيير، حوارات في الفكر العربي المعاصر"، وزارة الثقافة، ط1 2002، ص39، ص40.

(17)- رضوان جودة زيادة، "سؤال التجديد في الخطاب الإسلامي المعاصر"، دار المدار الإسلامي، ط1، بن غازي ليبيا، 2005، ص379، ص380.

(18)- طه جابر العلواني، "الأزمة الفكرية ومناهج التغيير"، دار الهادي، ط1، 2003، ص 141.

(19)- نورة خالد السعد، "التغيير الاجتماعي في فكر ملك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية"، مرجع سابق ص36.

(20)- عمر كامل مسقاوي، "المصطلحات الرئيسية في فكر مالك بن نبي"، مجلة مطارحات، السنة الرابعة العدد20 2003، ص96.

(21)- المرجع نفسه، ص95.

(22)- نواف القديمي، "الإسلاميون سجال الهوية والنهضة، مقاربات في الفكر والممارسة"، مرجع سابق ص135.

(23)- مالك بن نبي، "شروط النهضة"، مصدر سابق، ص59.

(24)- مالك بن نبي، "فكرة كومينويلث إسلامي"، دار الفكر المعاصر بيروت لبنان،دار الفكر دمشق سوريا ط9، 2009، ص41.

(25)- محمد أركون، "الفكر الإسلامي نقد واجتهاد"، ترجمة وتعليق هاشم صالح، لافوميك المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1993، ص188، ص189.

(26)- نورة خالد السعد، "التغيير الاجتماعي في فكر ملك بن نبي، دراسة في بناء النظرية الاجتماعية"، مرجع سابق ص 38.

(27)- المرجع نفسه، ص42.

(28)- الطيب برغوث، "الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية"، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 2004، ص 134.

(29)– زكي نجيب محمود، "في حياتنا العقلية"، دار الشروق، ط2، 1981، ص195.

(30)– مالك بن نبي، "مجالس دمشق"، دار الفكر دمشق سوريا، ط2، 2006، ص74.

(31)– عزيز المدرس، "الرؤية الآن دراسة تحليلية لعملية التغيير الحضاري وللواقع السياسي المعاصر"، دار الكتاب الثقافي، الأردن أربد، 2005، ص55.

(32)– علي زيغور، "صراع قيم السياسة والحقيقة في الفكر العربي المعاصر"، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي 1992، ص50.

(33)– المرجع نفسه، ص50.

(34)– عزيز المدرس، "الرؤية الآن دراسة تحليلية لعملية التغيير الحضاري وللواقع السياسي المعاصر"، مرجع سابق ص142.

(35)– الطيب برغوث، "الواقعية الإسلامية في خط الفعالية الحضارية"، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1 2004، ص 162.

(36)– منير شفيق، "في نظريات التغيير"، الدار العربية للعلوم، المركز الثقفي العربي، المغرب، لبنان، ط2 2005 ص162.

(37)– الطيب برغوث، "حركة تجديد الأمة على خط الفعالية الاجتماعية"، دار قرطبة للنشر والتوزيع الجزائر،ط1 2004، ص4.

(38)– المرجع نفسه، ص3، ص4.

(39)– الطيب برغوث، "مقدمة في الأزمة الحضارية والثقافة السننية، تحليل لأهمية المعطى الثقافي التربوي"، دار قرطبة، للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2004، ص30.

(40)– أسعد السحمراني، "مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا"، دار النفائس، بيروت، ط2، 1986، ص 198.